الطامة الصغرى أو الحرب الكبرى

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ. انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (سورة الانعام ٦ : ٦٦)

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ، وانه ليبغي أن رآه اعتز واستعلى » وان مدّ الطغيان لا إلى جزر ، وان غناه لا إلى فقر ، وان البغي مصرعه وخيم ، وإن علوّ الجبارين لا إلى هبوط ذميم

كانت المسألة الشرقية فزّاعة أوربة اذا فزعت من سوء العواقب ، ومشأمتها اذا تطيرت من امارات النوائب ، وكانت ترى ان مشكلتها أعقد من ذنب الضب ، وأن حلها أعسر من تربيع الدائرة ؛ وقد أنذرها داهية ساستها ، (البرنس بسمارك) بأن شرارة واحدة من نار حرب بلقانية تكفي لإحراق ممالك أوربة كلها ، ولكنهم تمادوا بالنذر ، وغرهم ما كانوا يسمونه التوازن الأوربي بين وفاق مثلث وحلاف مثلث . وألفت دولة الروسية بين المختلفين من الدول البلقانية ، فجعلت البلغار واليونان والصرب والجبل الاسود إلبا واحدا على الدولة العثمانية . بعد أن أغارت ايطالية على عملكة كبيرة من ممالكها وهي طرابلس الغرب وبرقة .

ثم سمحت الدول الكبرى كلها للبلقانيين بقتال الدولة العثمانية ؛ ولكنهن صرحن بأنهن لا يسمحن بتغيير مّا في خريطة البلقان ، لأن التنازع على تلك الارض مثار البغي والعدوان ، فاشتعلت نيران الحرب ، واظهر البلقانيون فيها من القسوة والوحشية والفظائع والفواحش مالا مزيد عليه ، ولم ينبض في قلوب رجال الدول الكبرى عرق من عروق الرأفة والرحمة ، ولا احتج أحد منهم على تلك المذابح والفظائع بكلمة ، وانما كان همهم محصورا في حصر الحرب في البلقان ، ومنع شررها ان يصل الى ممالكهم الكبار

ثم شرع البلقانيون في قسمة ما استولوا عليه من البلاد العثمانية ، فسمحت لهم الدول بذلك متناسية وعدها بعدم السماح . فوقع بينهم التنازع والتقاطع ، وحل الخلاف محل الحلاف . ولم يرضهم ما حكم به في القسمة مؤتمر السفراء ، فأوقدوا نار القتال بينهم ، ونقضوا ما أبرمته الدول لهم . ثم دخلت رومانية في الامر معهم ، وضربت من الغنيمة بسهم ، وكانت القسمة ضئزى ، غبن بها البلغار ، وكان القدح المعلى لليونان ، واعتزت الصرب أي اعتزار . وكانت النمسة مسعر نار الفتنة بينهن ، لتأمن مغبة اعتزاز الروسية بهن .

وقعت الواقعة ، وفتح باب المسألة الشرقية ، وسوّل الغرور للدول الكبرى عملها ، وظنت ان ساستها قدروا بدهائهم على حصر نيرانها في مواقدها ، ومنع شررها ان يتعدى الى ما حولها ، وأن أوربة المملوءة من البارود والديناميت ، أمنت أن تصيبها الشرارة التي أنذرها بسمرك فيعمها الحريق . ونسوا عدل الله العام ، في جميع الأمم والأقوام ، وانه يعاقب المقرّ للشر كمجترحه ، ويجزي الساعي بالخير كفاعله ، (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون)

غر الصرب ما أوتيت من نصر ، ومن سعة في الملك ؛ ومن عود الصربيين العثمانيين اليها ، فطمعت في صرب النمسويين وفيما يسكنونه من البلاد أيضا ، فزادت جمعياتها السرية الساعية الى ذلك جرأة وإقداما ، حتى اغتال بعض الفدائيين منهم ولي عهد النمسة وقرينته (في ٢٨ يونيو الماضي) في مدينة (بوسنه سراي) عاصمة البوسنه عند زيارتهما لها . وقد ثبت لدى حكومة النمسة والمجر ان هذه الجناية كانت أثر مكيدة دبرت في (بلغراد) عاصمة الصرب ، وان بعض الضباط وعمال الحكومة من الصربيين هم الذين اعطوا الجناة ما كان معهم من السلاح والقذائف النارية ، وكلهم من جمعية صربية ثورية . فأرسلت حكومة النمسة والمجر بلاغ تهديد وانذار لحكومة الصرب مشتمل على ما يرهقها ويذلها

فما كلفتها اياه تصريحا أو ضمنا أن تعترف باشتراك بعض ضباطها وموظفيها في جناية قتل ولي العهد وزوجه ، وتتبرأ من عملهم وتصرح بالأسف لوقوعه — وان تنشر الاعتراف والبراءة في جريدتها الرسمية وجريدتها العسكرية ، — وان تتبرأ من

أعمال الجمعيات الصربية المحرضة على عداوة النمسة — وان تحل جمعية (نارونا) أو (ابرانا) — وان تضبط جميع المطبوعات الصربية المشتملة على التحريض على النمسة والتنفير منها لهذه الجمعية ولغيرها — وان تعزل جميع الضباط والمستخدمين الذين تثبت لدى حكومة النمسة تهمة تحريضهم على عداوتها — وان تعاقب الشركاء في جناية اغتيال ولي العهد من الصربيين المقيمين في بلادهم، ومنهم بعض الضباط والموظفين المعينين باسمائهم — ومنها ان تحذف من كتب التعليم كل مايعد دعوة الى معاداة النمسة، وتعزل المعلمين الذين يبثون هذه الدعوة — ومنها ان تمنع تهريب السلاح والمواد المفرقعة الى ماوراء الحدود — ومنها ان تقبل من تندبهم حكومة النمسة لمساعدة حكومة الصرب على تنفيذ هذه الاقتراحات

كتب إنذار النمسة في ٢٣ يوليو الماضي، وكلفت الصرب ان تجيب عنه في مدة ٤٨ ساعة. أما الصرب فلم تقبل مطالب النمسة، وبلغت الدول الانذار وطلبت منها التوسط في الأمر، وأما الدول فقد اختلف رأيهن — فروسية عدت بلاغ النمسة وسيلة منها الى قتال الصرب وإذلالها، وصرحت بأنها لاتسكت على ذلك، وبادرت الى مذاكرة فرنسة وانكلترة ومطالبتهما بالاتحاد معهما على الحرب والقتال، فأسرعت فرنسة الى وعدها بالقيام بجميع عهودها التي تفرضها عليها المحالفة. ولكن انكلترة ترددت في الامر، ولم تعد بالمساعدة على الحرب، وطفقت تخاطب سفراءها بلسان البرق، مجتهدة في رتق الفتق. وأما ألمانية فقد أظهرت العطف على حليفتها، وارتأت وجوب حصر الخلاف بين النمسة والصرب دون سواهما، حتى لايتعدى لهيب النار الى أوربة كلها، وتبادل عاهل الألمان وقيصر الروس البرقيات في وجوب صيانة السلم في أوربة، وصرح الأول للثاني بأن ذلك موقوف على عدم تصدي روسية للاستعداد للحرب. ولكن روسية بادرت الى تعبئة جيشها تعبئة عامة، وبلغ ناظر خارجيتها سفير انكلترة ان عند حكومته براهين قاطعة على ان ألمانية تستعد برا وبحرا لمهاجمتها. فروسية بدأت بالتعبئة جهرا، متهمة ألمانية بأنها تستعد سرا، وأنها لاتدعها تسبقها في الاستعداد

والمتبادر مما دار بين الدول في هذه المسألة أن ماكانوا يقولونه ويكتبونه كان

له ظهر وبطن ، والظاهر منه أن انكلترة وفرنسة كانتا حريصتين على منع الحرب الأوربية، ولكن روسية وألمانية لم تدعا لهن طريقا يسلكانه لذلك . ففي ٢١ يوليو قر قرار الروسية على التعبئة العامة رسميا ، وألمانية وفرنسة امرتا بذلك في أول أغسطس . وأعلنت ألمانية الحرب على روسية في ٢ منه بناء على اجتياز بعض الجنود الروسية للحدود ، وتتابعت[1] سائر الدول الكبرى على الحرب ماعدا إيطالية فانها لزمت الحياد

نعم ان وراء الاسباب الرسمية للحرب أسبابا أخرى تقدمتها ترجع الى أصل واحد في السياسة ، وهو تعارض الدول الكبرى في المصالح والمنافع والسيادة والعظمة في الأرض ، فروسية ترمي الى ان تكون ذات السيادة العليا بضم عصبية الشعوب السلافية في البلقان والنمسة اليها ، والتوسل بذلك الى النفوذ من زقاقي الآستانة (البوسفور والدردنيل) الى البحر الابيض المتوسط ، الذي هو بين أوربة وآسية وافريقية بمنزلة القلب من جسد الانسان .

وألمانية تود أن تكون ذات السيادة العليا في أوربة كلها بل في العالم كله ، بالجمع بين القوتين البرية والبحرية ، على أكمل مايصل اليه ارتقاء العلوم الطبيعية ، والفنون الآلية

وكانت انكلترة قد سبقت الدول كلها بالقوة البحرية التي جعلت لها السيادة العليا في الاستعمار ، فهي ترى انه يجب عليها أن تحافظ على ما آتاها الله بجدها وتدبيرها ، فكانت كلما رأت ألمانية أنشأت بارجة حربية تنشئ بارجتين مثلها ، لانها إذا لم تفعل ذلك لاتلبث أن تسلبها ألمانية ملكها

وأما فرنسة فهي على ما كان لها من السبق في الفنون والأعمال الحربية ، من برية وبحرية ، لم تكن هذا في العهد الذي عظمت فيه المباراة بين انكلترة وألمانية ، مجتهدة في الاستعداد للحرب الاوربية بحسب ماتخولها ثروتها ومعارفها ، بل اكتفت من العظمة بتوسيع مساحة مستعمراتها ، بالاستيلاء على مملكة المغرب الأقصى بعد إضعافها ، بإيقاع الفتن والحروب الداخلية فيها . وانصرفت الى التمتع بسعة الثروة ونعمة الحضارة ، واكتفت من اتقاء زحف ألمانية عليها بتحصين حدودها ، وبمحالفة

(١) التتابع بالمثناة الفوقية بمعنى التتابع بالموحدة الا أنه خاص بالشر

روسية ثم مودة انكلترة لها ، فكانت تمدّ روسية بالقناطير المقنطرة من الذهب ؛ وتغريها بما يوافق هواها من الاستعداد للحرب ، وتوغر صدرها ، وتستثير دفين حقدها ، وتستخرج كمين ضغنها ، على النمسة وألمانية معا . وكان من سياستها أن تحمل روسية المال الذي تقتضي المال انفاقه على الاستعداد الحربي مباراة لألمانية — فتستفيد بذلك فائدتين — استغلال المال بدلا من اضاعته في زيادة أهبة الحرب ، واعداد جند غريب للدفاع عن فرنسة بدلا من تعريض معظم شبانها للقتل ، مع ماميزت به من قلة النسل . — ولكن انكلترة حملتها بعد الاتفاق معها على تعزيز قوتها البحرية ، كما حملت هي روسية على زيادة العناية بجميع المعدات الحربية .

بذلك كله اصبحت هذه الدول العريقة في العلم والصناعة ، والثروة والحضارة ، تنفق مئات الملايين مما تمصه من ثروة البشر وثمرات كسبهم ، على الاستعداد لإراقة دمائهم ، وتدمير حضارتهم ، وكلها مشتركة في هذا الوزر الكبير ، ومصرة على هذا الجنث العظيم ، الذي لا باعث له الا الطمع في الكسب ، وحب العلو في الارض ، وان كانت تموهه بدعوى تأييد السلم بالاستعداد للحرب ؛ وعدم استعمال هذا السلاح في غير المتوحشين ، الذين تريد تهذيبهم بالمدنية والدين !!

وانما تراهم يخصون ألمانية أو عاصمتها غليوم الثاني بمزيد الذم ، ويرمونه بتعمد اغراق أوربة في بحر من الدم ، لأن أمته قد صارت بسعيه أشد امم الارض عناية بالفنون والاعمال العسكرية ، واستعدادا للحروب البرية والبحرية ، حتى اضطرت سائر الدول اضطرارا لمجاراتها في ذلك ، فاذا كانت ألمانية لم ترض من الدول التي سبقتها الى الاستعمار بمساواتهن لها في حرية التجارة والكسب في بلادهن ومستعمراتهن ، ولا بما بذلتهن به من الثمن النسبي في تجارتها وصناعتها فقامت تستعمد لسلبهن ما في أيديهن ، أو الاستعلاء عليهن ، — فكيف يرضين بأن يعرضن ملكهن للضياع والخضوع لقوة الشعب الجرماني العسكرية القاهرة ؟

هذه حجة الامم الاوربية على ألمانية التي ارادت ان تعامل الدول التي جاءتها أو سبقتها بالحضارة ، بمثل ما عاملن به الامم التي غلب عليها الجهل والبداوة ، وهي السيادة بقوة العلم والصناعة . على ان الجرائد المصرية الرئيسة كالمقطم والاهرام قلت

لنا عن لندن وباريس وبطرسبرج ان جميع الشعوب تلقت نبأ اعلان الحرب بالسرور والابتهاج ، والهتاف في الشوارع والاسواق ، بل استثنوا الشعب الالماني فزعموا أنه كاره للحرب ، مسوق اليها بتأثير العامل غليوم الثاني والحزب العسكري . فان صح قولهم هذا — ولن يصح — فهو فضيلة لهذا الشعب على سائر الشعوب الاوربية . ولكنهم ارادوا ان يهونوا امره ، ويبالغوا في ذم عامله ، فمدحوه بغير قصد ، وسيرجعون عن هذا المدح

حسبنا هذه الجملة الوجيزة من بيان أسباب هذه الحرب وتقدماتها ، ونختم المقال بعبرة المؤمنين بالله فيها ، فنقول ان هذه الحرب تربية من الله تعالى للبشر الذين بغي أقوياؤهم على ضعفائهم ، ولم يشكروا نعم الله عليهم بتسخير الطبيعة لهم ، وتمكينهم بسعة العلم بسننه فيها ، من جميع أنواع الانتفاع بها ، بل كفروا هذه النعم بالبغي في الارض ، واستعلاء بعضهم على بعض ، حتى انهم حقروا أنظم الإنسان الذي لم يصل الى درجتهم في العلم ، فجعلوه ـ وقد كرمه الله — أدنى منزلة من الحيوانات العجم ، فلو أنهم رأوا قطعا من الانعام أو أسرابا من الطير ، يفتك بعضها ببعض ، وتسرف في الظلم والعدوان ، كما فعل جيرانهم في البلقان ، لحالوا بينها ، ومنعوها من التمادي في ظلمها

أما وقد فعلوا مافعلوا ، ورضوا بما رضوا ، وجعلوا جل همهم الاستعداد لسفك الدماء ودك صروح العمران ـ فلا بد أن ينتقم الله تعالى منهم لكفرهم بنعمته ، وبزلل قوائم بما استعلوا وبغوا به على الضعفاء من خلقه . وكذلك فعل — فقد جعل الآلات الحربية التي بها يتحكمون وبالا عليهم ، وعذابا يأتيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فتفتك بهم مناطيدهم وطياراتهم ، وبوارجهم وغواصاتهم ، وألغامهم وبنادقهم ومدافعهم ، وتقضي من جموعهم ، أكثر مما أفنوا من اخوانهم البشر بأيديهم ، أو بمساعدتهم وإقرارهم . وأذاق بعضهم بأس بعض ، فجعل محالفاتهم واتفاقاتهم وبالا عليهم ، وسببا لتعميم الانتقام بهم . فصدق قول الله الذي صدرنا به الكلام عليهم . وسيصدق وعده أيضا بجعل العاقبة للمتقين ، الذين يحررون الشعوب المظلومة من استعباد الظالمين ، وإنما يرحم الله الراحمين ، «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء »